

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللجنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

استراتيجية العفو المطلق وربط كافة مناحي الحياة بالله تعالى

وحجية الظن الخاص والمطلق على الانفتاح والانسداد

(١٠)

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١)

في هذه الآية الكريمة بصائر كثيرة واستلهامات عديدة، وسوف نشير في هذا المبحث إلى بصيرة واحدة في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ وإلى استلهام واحد على ضوء قوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ منهما بإذن الله تعالى.

المعنى الدقيق - المجهول ل(العفو)

فمن البصائر في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ انه من المعهود عند الناس أن العفو يعني الصفح والمغفرة والتجاوز وشبه ذلك إذ أنهم يتعاملون مع هذه المفردات كألفاظ مترادفة، لكن ذلك مبني على التسامح أما المعنى الدقيق للعفو فهو معنى يختلف عن المغفرة ونظائرها كما سيأتي، ويشهد لذلك الدقة في اختيار الكلمات في هذه الآية الكريمة فقد قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولم يعكس بأن يقول: (فأغفر لهم وأطلب من الله لهم العفو) مثلاً.

أما المعنى الدقيق الرائع للعفو فهو (الدروس والحو والاندراس) فإن الإنسان تارة: (يعفر لمن ظلمه) لكنه يبقى في قلبه منه شيء فقد غفر له لكن لم يعف عنه إذ المغفرة تعني الستر ومنه سمي المغفر مغفراً^(٢) وأما العفو في معناه الأسمى فيعني أن تمحو حتى من ذهنك إساءته إليك وتجعلها كأن لم تكن وكأنك لم تعلم بها أبداً فتكون محوً من صفحة الذهن والضمير كما أغفلت من حيث تجليات ردود الأفعال على الجوارح.

ماذا يعني (على الدنيا بعدك العفاء)؟

ومما يوضح ذلك قوله ﷺ «عَلَى الدُّنْيَا بَعْدَكَ الْعَفَا»^(٣) أو «فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ» فقد ذكروا للعفاء معنيين:

أحدهما: التراب الذي لم يوطأ من قبل؛ فإن التراب تارة ليكون في قرية أو مزرعة أو منطقة مأهولة فيداس قليلاً أو كثيراً، لكنه تارة أخرى يقع في مجاهيل الصحراء الموغلة في البعد بحيث لا تطأه أقدام قافلة ولا سابلة، فهذا التراب هو الذي يقال له (العفاء) على ما استظهره في معجم مقاييس اللغة وهو المستظهر أيضاً بالنظر لمختلف استعمالات (العفو) بل وللمعنى الآخر الذي ذُكر للعفاء وهو الآتي بعد قليل، فقوله ﷺ «عَلَى الدُّنْيَا بَعْدَكَ الْعَفَا» يعني التراب المتروك المهمل غير المطروق بالمرّة أي على الدنيا بعدك التراب المتروك بالمرّة فكأنها لم تكن أبداً، وليس المعنى: مجرد على الدنيا بعدك العفاء أي التراب فكأنها لا قيمة لها.

ثانيهما: الدروس أي على الدنيا بعدك الدروس والانسداد، ولا بُد في أن يكون هذا هو الأصل وأن يكون إطلاق العفاء على التراب المهمل لكونه عائداً إليه.

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٢) وهو زَرَدٌ يُنْسَج من الدُّرُوع على قدر الرأس، يُبَسُّ تحت القلنسوة.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٤٤.

وقد جاء في مجمع البحرين (عفى: درس وانمحي)^(١)

كما ورد عن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام عند تأيينه سيدة نساء العالمين في نسخة «وَعَفَا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ تَجَلُّدِي»^(٢) أي انمحي واندرس وانتهى تجلدي حتى كأنه لم يكن لي جلد وصبر أبداً.

كما يقال: (هذه أرض عفو) أي ليس فيها أثر فلم تُرْعَ.

كما يقال: عفى المرعى أي عمن يحل به؛ وذلك إذا كان مأهولاً ثم تركه أهله فصار مهجوراً فيقال: عفى المرعى أي ترك بعد أن كان مأهولاً، فالمراد الترك في مرحلة العلة المبقية.

فقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ قد يستظهر منه هذا المعنى الدقيق للعفو أو فقل المرتبة العالية منه إذا لم نقل بانه معنى قسيم بل هو حقيقة تشكيكية ذات مراتب أريد منها ههنا عاليها لانصراف الإطلاق إليه أو لمناسبات الحكم والموضوع أو لعظيم خلقه وكرمه ﷺ، فقد أمر الله تعالى نبيه بالعفو عنهم رغم أن الجريمة التي ارتكبها الرماة بتركهم نبيّة الجبل مخالفتين صريح نهي الرسول ﷺ والذي تسبب في قتل العشرات من المسلمين (لعلهم كانوا سبعين شخصاً) كانت جريمة الخيانة العظمى وجريمة حرب يستحقون عليها الاعدام لكنه تعالى أمره بالعفو عنهم المستظهر أن المراد به هو المرتبة العالية من العفو التي أشرنا إليها.

والعبرة من ذلك كله: أن علينا أن ننتهج نفس المنهج في التعاطي مع مختلف أولئك الذين اخطأوا بحقنا بل أو: تعمدوا ظلمنا وأذانا، فليس المطلوب منا فقط أن نتعامل معهم على مستوى الجوارح معاملة من لم تصدر منه إساءة تجاهنا، بل المطلوب فوق ذلك وهو أن نتعامل معهم على مستوى القلب والجوانح كذلك أيضاً بأن: نمحو من صفحة ذاكرتنا إساءته إينا فيصفو قلبنا له كصفائه من قبل! وذلك صعب حقاً ويتوقف على جهد وجهاد وسعي واجتهاد كما يتوقف الدفع بالتي هي أحسن على ذلك، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٣).

ربط كافة مناحي الحياة بذكر الله تعالى

ومن الاستلهامات: في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْفِرْ لَهُمْ﴾ وما سبقها ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ولحقها ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: إن اللازم على كل مؤمن أن يربط كافة مناحي حياته بالله تعالى بأن يتذكره في كل حركة وسكنة وأخذٍ وعطاءٍ وقول وفعل ويكون كما ورد (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله ومعاه وبعده) وفي الحديث «هُوَ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَفَوْقُ وَتَحْتُ وَمُحِيطٌ بِنَا وَمَعَنَا»^(٤) والمراد: (قبله بالعلم ومعاه به وبعده به أيضاً) و(قبله بالقدرة ومعاه وبعده بها أيضاً) و(قبله ومعاه وبعده بالهيمنة) وهكذا وهلم جرا.

أسماء الله تملأ صفحات القرآن بشكل مذهل

والغريب في القرآن الكريم في هذا الحقل هو أنه ملأت جوانبه من اسم الله تعالى بكافة سُورِهِ وصفحاته (وهو كتاب الله التربوي الذي علينا أن نتعلم منه أن نملأ كافة أرجاء حياتنا بذكره جل اسمه).

والأغرب أن ذلك التكرار المذهل لأسماء الله وصفاته - صفات الجمال والجلال - في القرآن، أتى بشكل رائع سلس محبب إلى القلوب بل وآسر لها، مع ان تكرر ذكر الشيء كثيراً ممل عادةً لكن المشهود في القرآن الكريم أن ذلك هو من أهم عوامل شدّ القلوب إلى القرآن نفسه.

(١) الشيخ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، انتشارات مرتضوي، ج ١ ص ٣٠٠.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، عدد الأجزاء ٨، ج ١ ص ٤٥٨.

(٣) سورة فصلت: آية ٣٤ - ٣٥.

(٤) ثقة الإسلام الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، عدد الأجزاء ٨، ج ١ ص ١٢٩.

ولنتدبر في بعض الإحصاءات عن مدى تكرار أسماء الله وصفاته في القرآن الكريم:

فقد تكرر لفظ الجلالة (الله) في القرآن الكريم ٥٣٦ مرة!

كما تكرر اسم (الرحمن) ١١٩ مرة!

وتكرر اسم (الرحيم) ١١٩ مرة كذلك!

وتكرر اسم (العزیز) أكثر من ٥٠ مرة.

وتكررت (ربنا) ٧٢ مرة.

كما تكررت كلمة (رب) مئات المرات لعلها تقارب الخمسمائة مرة.. وهكذا.

ولعل مما يعد من وجوه إعجاز القرآن الكريم هو هذا التكرار المذهل في كل صفحة عشرة أو عشرين أو ثلاثين مرة لكن بما يشد

الإنسان أكثر فأكثر إلى القرآن الكريم مما لا نجد في أي كتاب آخر في الكون كله! وحتى نهج البلاغة، الآتي بعد القرآن الكريم كأعظم

كتاب في الكون، لم يتميز بهذه الميزة المذهلة!

ليبدأ التاجر والمحامي والطبيب والمدرس كل خطوة بذكر الله

والمطلوب من المجتمع الإيماني أن يتأسى بما صنعه الله تعالى في كتابه قدر المستطاع: فعلى أن لا نبدأ عملاً إلا بالبسملة أو الحمدلة

كما ينبغي أن لا نلتقي بأحد إلا وأن نذكر اسم الله تعالى بعد السلام عليه أو قبله، بل ولا يبيع التاجر عقاراً أو البقال فاكهة أو المزارع

داجناً أو ماشيةً إلا ويذكر الله قبل ذلك، وعلى المشتري مثل ذلك!

وكذلك في المدارس من الروضة إلى الجامعة: فإن المفروض أن يبدأ المعلم بذكر الله تعالى: بالبسملة والحمدلة وشبههما، مما لا نجد منه

أثراً، ويا للخسارة العظمى، في أغلب الأساتذة!

وما أعظم الأثر التربوي لذلك كله، ذلك أن تذكر الله تعالى في مختلف الحالات يحدث تحولاً جوهرياً في روح الإنسان وقلبه ونفسه

وجسده أيضاً ويجعله بحق إنساناً ملائكياً متميزاً مثالياً في شتى الأبعاد!

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً

وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن

تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ

حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١﴾

كيف نخاطب المالكين عند الدخول إلى بيت الخلاء؟

ولقد علمتنا الروايات الشريفة ضرورة ذكر الله تعالى بل وكيفية ذكره في مختلف الحالات وحتى عند دخول بيت الخلاء^(١) أيضاً فقد ورد:

«عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كَانَ إِذَا أَرَادَ قِضَاءَ الْحَاجَةِ وَقَفَ

(١) سورة آل عمران: آيات ١٩٠ - ١٩٥.

(٢) دورة المياه أو المرافق.

عَلَى بَابِ الْمَذْهَبِ ثُمَّ التَّفَتَّ يَمِيناً وَشِمَالاً إِلَى مَلَكَيْهِ فَيَقُولُ: أَمِيطَا عَنِّي فَلَكُمَا اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ لَا أُحْدِثَ حَدَثًا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمَا»^(١).

فمن المستحب ذلك.. وما أعظم الأثر التربوي له! إذ انه يذكر الإنسان بالملكين اللذين هما معه دائماً وانه ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٢) ويذكره بما هو أعظم وهو أن الله حاضر ناظر، وأنه يعاهد الملكين بالعهد الإلهي على أنه لا يحدث شيئاً حتى يخرج.. وفي ذلك تنبيه لمرحلة ما بعد الخروج من المرافق أيضاً إذ أنه سوف يتذكر حينئذ الملكين وأنهما عادا إلى صحبته والرقابة عليه ويتذكر فوق ذلك أن الله تعالى حاضر ناظر في شتى الحالات فلا يطغى ولا يعصي ولا يظلم ولا يعتدي!

وكذلك على الإنسان أن يتذكر الله تعالى عند كل حركة وسكنة فإذا رفع يده ليضرب زوجته أو ابنه أو من هو أضعف منه تذكر أن فوقه جبار السماوات والأرض وانه لا يفوته ظلم ظالم وإن عذابه أشد وأخزى.. وكما سيحدث ذلك من الفرق في حياة الإنسان!

الحكمة من قول الإمام السجاد عليه السلام (آه من القصاص)

وقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام أنه «التَّائِبُ عَلَيْهِ نَاقَتُهُ فَرَفَعَ الْقَضِيبَ وَأَشَارَ إِلَيْهَا وَقَالَ: لَوْلَا خَوْفُ الْقِصَاصِ لَفَعَلْتُ، وَفِي رِوَايَةٍ آهٍ مِنْ الْقِصَاصِ وَرَدَّ يَدَهُ عَنْهَا»^(٣).

والمستظهر أن ذلك كان في مقام التعليم لتعلم نحن ولم يكن على ظاهره لوضوح أن الإمام لا يفعل المكروه فكيف بالمحرم، وقوله: «لَوْلَا خَوْفُ الْقِصَاصِ» دليل على حرمة هذا الضرب إذ الحرام هو الذي يستوجب القصاص لا الجائز شرعاً وهل يعقل أن يهجم الإمام عليه السلام بالحرام؟ بل هل يعقل أن يبدأ ببعض مقدماته؟ على أنه لو كان مكروهاً أو خلاف الأولى لما كان من الوارد أن يفعله الإمام، فلا ريب أنه لتبنيها نحن وتعليمنا على أن نراقب الله تعالى في كل حال: فكلما هم الإنسان بإيذاء غيره أو باغتيابه أو الكذب عليه أو بالغش والخذاع والرشوة وأكل المال بالباطل، تذكر الله والآخرة والقصاص والحساب والعتاب والعقاب فكان في ذلك أكبر رادع له عن كل معصية بل عن كل تخاذل عن أي عمل من الأعمال الصالحة.

مقاصد الشريعة: (الرحمة والحكمة)

سبق أن (الرحمة الإلهية) هي من مقاصد الشريعة بل انها من أهمها على الإطلاق بل انها مع (الحكمة) هما اللذان عليها مدار عالم التشريع والتكوين ولولا حكمته جل اسمه لأعطى بمقتضى رحمته العطايا والمِنَح بلا حساب لكل أحد وفي كل الحقول ولكن (قيدت حكمته رحمته).

ولنتوقف الآن عند مظهرين من أجلى مظاهر الرحمة الإلهية وهما:

من مجالي الرحمة: إمضاء حجية الطرق والامارات

الأول: إمضاء (أو جعل، على المسلكين) حجية الامارات والطرق العقلية: كخبر الثقة وقول أهل الخبرة والظواهر وغيرها (كالشهرة والإجماع المنقول وقول اللغوي على القول بحجيتها كما هو المختار) فإن ذلك من رحمة الله تعالى أنه اكتفى في امتثال أوامره ونواهيه بالوصول إليها وإلى كيفيةها بالظنون وإن سميت بالمعتبرة؛ إذ كان يمكن له جل اسمه أن يوجب تحصيل العلم (كالخبر المتواتر والمخفوف

(١) الشيخ الطوسي، التهذيب، دار الكتب الإسلامية، طهران، عدد الأجزاء: ١٠، ج ١ ص ٣٥١.

(٢) سورة ق: آية ١٧ - ١٨.

(٣) المحدث النوري، مستدرک الوسائل، مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، ١٤٠٨ هـ، ج ١٨ ص ٢٦٢.

بالقرينة القطعية وما أشبهه) فإن عجز عنه أوجب عليه الاحتياط وإن أوقعه في العسر والحرج إذ حق الله على العبد أعظم من ذلك بما لا يبلغ مداه عقل بشر فليقع في بعض العسر تحصيلاً لرضا الرب وامثالاً لأوامره ونواهيه! لكنه من عظيم رحمته وفضله اكتفى عن العلم وعن الاحتياط بالظنون الخاصة.

وتجوز التقليد

وكذلك الحال في التخيير بين الاجتهاد والتقليد والاحتياط فانه لولا رحمته ولطفه وفضله على العباد لكان مقتضى القاعدة أن يوجب عليهم الاجتهاد أو الاحتياط دون التقليد، وذلك كما أوجب عليهم الاجتهاد في أصول الدين والذي أدعي عليه الإجماع مكرراً وإن نقل الشيخ فيه ستة احتمالات وأقوالاً وذهب السيد الوالد، فيما اتذكره عنه، إلى صحة التقليد فيها، وعليه فان تجويزه تعالى التقليد في الأحكام الفرعية لهو من رحمته جل وعلا.

ثم ان إيجاب الاجتهاد في الأحكام الشرعية الفرعية على قسمين فتارة يوجب ذلك للمكلف العسر والحرج كما في الكثير من الناس وأخرى لا يوجب كما في الكثيرين أيضاً، ولولا لطفه ورحمته لأوجبه أو الاحتياط حتى فيمن يوقعه ذلك في أشد العسر والحرج وذلك لضرورة أن أحكام الله أهم وأسمى وأجل شأناً من أن نرفع اليد عنها لمجرد وقوعنا في عسر وحرج لولا انه سبحانه هو الذي منّ علينا بذلك. سلمنا.. لكن كان مقتضى القاعدة إيجاب الاجتهاد أو الاحتياط على من لا يوقعه تكليفه باحدهما في العسر والحرج ككثير من التجار والشباب وغيرهم ممن له متسع من الوقت فيصرفه في زيادة ثروته أو في لهوه ولعبه، فليصرفه بدل ذلك في الاجتهاد والتفقه في دين الله! إذ أليس ذلك أسمى وأعلى وأجل بل وأوجب؟.

فذلك كله هو المجلى الأولى للرحمة وهو إمضاء حجية الطرق والامارات على تقدير القول بالانفتاح.

ومن مجالها: حجية الظنون المطلقة على الانسداد

الثاني: الحجية (أو إمضاءها) للظنون المطلقة على فرض القول بالانسداد.

وتوضيح ذلك في ضمن الأمور التالية:

أ- ان مقدمات الانسداد هي:

أن هنالك أحكاماً كثيرة فعليه يُقَطَّع بعدم الرفع الشارع يده عنها.

وأن باب العلم قد أنسد فيها.

وأن العمل بالاحتياط موجب للعسر والحرج.

وان البراءة مستلزمة للخروج من الدين وكذا الرجوع إلى الأصول الأربعة كل في مورده.

وأن القرعة كذلك مستلزمة للخروج من الدين إضافة إلى قصور أدلتها عن العموم إلا لما قام عليه العمل.

فبقي العمل بالظن المطلق لأنه الراجح وفي عدم جعل الحجية له ترجيح المرجوح.

ب- ان نتيجة مقدمات الانسداد هذه، هي إما مطلقة وإما مهملة، والبحث فيها يقع تارة على الكشف وأخرى على الحكومة

وذلك في ثلاث مناحي:

١- أنها مطلقة من حيث المنشأ.

٢- أنها مطلقة من حيث المتعلق.

٣- أنها مطلقة من حيث المراتب.

أو أن نتيجة تلك المقدمات مهملة من حيث تلك النواحي الثلاثة كلها أو بالتفصيل.

حجبة كافة مناشئ الظن على الانسداد

ج- فقد يقال بأن مقتضى الرحمة الإلهية (كمقتضى وكمويد لا كدليل إذ سبق أن مقاصد الشريعة ليست أدلة بل هي مجرد مقرّبات ومؤيدات فلا بد من ملاحظة مقتضى الأدلة في كل مورد ومقام) أن تكون نتيجة مقدمات الانسداد مطلقة من حيث مناشئ الظن، ومناشئ الظن:

منها: الشهرة بأقسامها الثلاثة.

ومنها: الإجماع المنقول.

ومنها: قول المؤرخ.

ومنها: قول اللغوي.

ومنها: قاعدة التسامح.

وذلك لأن من التسهيل على العباد اعتبارها بأجمعها حجة بدل التشديد عليهم بلزوم التحقيق المستوعب في اللغة مثلاً بمراجعة أقوال العديد من اللغويين حتى يحصل الاطمئنان.. وهكذا الإجماع المنقول وغيره.

بل نقول: أن بناء العقلاء على ذلك أيضاً^(١) ولو في الجملة؛ ألا تراهم يراجعون في غير الشؤون الخطيرة العطار أو الصيدلاني أو أحد كبار السن في تطيب المريض مرضاً غير خطير.

وألا تراهم يسألون عن الطريق ولو من الطفل الصغير؟.

حجبة الظن المطلق في المواعظ والمصائب وغيرها

د- وقد يقال بأنها مطلقة من حيث المتعلق (فإذا كانت مهملة اقتصر فيها على القدر المتيقن وهو أيضاً - بقدره - رحمة في مقابل عسر ايجاب الاحتياط) والمتعلق يعني ما تعلق به الظن.

والمتعلق الذي يكون الظن فيه حجة على أقسام وأنواع: المواعظ، والسنن، والتاريخ، والمصائب والعلوم النظرية العادية:

حجبة الظن العام في المواعظ

أولاً: المواعظ، فانه ليس المطلوب في الموعدة، بذكر قصة فيها عبرة أو شبه ذلك، تنقيح سلسلة الإسناد والثبوت السندي حسب مقاييس علم الرجال أبداً، ولذا جرت سيرة العقلاء بما هم عقلاء على عدم مطالبة الواعظ بما هو واعظ بسلسلة سنده إلى الموعدة الكذائية وتوثيق رجالها.

بل نقول إن ذلك مدعاة لأغلاق باب المواعظ أو تحجيمها إلى أبعد الحدود بل ان ما ذكرناه فطري وعقلاني وهو مجلي من مجالي رحمة الله تعالى بخلقه أن فطرتهم على قبول الموعدة بدون توقيفها على التحقيق السندي فيها؛ إذ لو كان كذلك لقصرت اليد عن أكثر المواعظ إذ أن أكثرها لا سند تام لها حسب مقاييس علم الرجال، بل ولفقد الكثير من الباقي منها تأثيره إذ سوف ينصرف الذهن حينئذٍ إلى سند الموعدة بدل التفاعل معها والتأثر بها، وأيضاً سيجرى تخصيص قسم من الوقت المخصص للموعدة عادة للبحث السندي عنها فتتقلص مساحة الموعدة إلى حد ما مع أن مساحتها، عادة، بالأصل قليلة!.

والحاصل: أنه كان من رحمة الله تعالى: أن جعل المواعظ حجة على السامعين هادية لهم ومرشدة من غير توقيف لحجيتها على كون

(١) وعليه: فقد رجعنا إلى باب الانفتاح.

إسنادها تماماً في كافة حلقات السند بل تكفي النصيحة المرسله أو المهملة سنداً، نعم لا شك في انها، كالمسانيد التامة سنداً دون شك، لا بد أن لا تبلى بالمعارض الأقوى أو مطلق ما يوجب طرحها.

حجية الظن العام في المصائب

ثانياً: المصائب، وأجلى مصاديقها المصائب الواردة على أهل بيت العصمة والطهارة، صلوات الله عليهم أجمعين، فان الظنون المطلقة فيها حجة ولا تتوقف حجيتها على توفر المقاييس الرجالية الحديثة فيها أبداً وإلا لكان نقضاً للغرض وإغلاقاً لحيز كبير من أبواب «أحيوا أمرنا»^(١) و«مَنْ بَكَى وَأَبْكَى فِينَا مِائَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ بَكَى وَأَبْكَى خَمْسِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ بَكَى وَأَبْكَى ثَلَاثِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ بَكَى وَأَبْكَى عِشْرِينَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ بَكَى وَأَبْكَى عَشْرَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ بَكَى وَأَبْكَى وَاحِداً فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ تَبَاكَى فَلَهُ الْجَنَّةُ»^(٢) ولعل السبب في اختلاف العدد هو مراتب الجنة أو مراتب الالبكاء أو الأصل والفضل مما فصلناه في بعض البحوث الأخرى، وأيضاً المئات من الروايات المحرصة على الحزن والالبكاء والإبكاء والتفاعل العاطفي (إضافة لسائر أنواع التفاعل) مع قضية الإمام الحسين عليه السلام.

حجية الظن العام في الآداب والسنن

ثالثاً: الآداب والسنن، ولذا ذهب المشهور إلى (التسامح في أدلة السنن) استناداً إلى قوله عليه السلام: «مَنْ بَلَغَهُ ثَوَابٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى عَمَلٍ فَعَمِلَ ذَلِكَ الْعَمَلَ التَّمَّاسَ ذَلِكَ الثَّوَابِ أَوْ تَبَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْحَدِيثُ كَمَا بَلَغَهُ»^(٣) وعنه عليه السلام: «مَنْ سَمِعَ شَيْئاً مِنَ الثَّوَابِ عَلَى شَيْءٍ فَصَنَعَهُ كَانَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى مَا بَلَغَهُ»^(٤) و«أَنَّ مَنْ بَلَغَهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ فَعَمِلَ بِهِ كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مَا بَلَغَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا نُقِلَ إِلَيْهِ»^(٥).

إضافة إلى ذلك فان الفلسفة والحكمة في ذلك هو عقلائية ذلك فان بعث الناس نحو مكارم الأخلاق مطلوب، والآداب والسنن هي من مكارم الأخلاق ولا حاجة، في بناء العقلاء وسيرتهم، إلى التثبت السندي في أمثال ذلك.

هذا كله فيما إذا قلنا كما قال المشهور باستفادة الاستحباب من روايات من بلغ، أما إذا قلنا بأنها تفيد إعطاء الثواب لمن بلغه على العمل الثواب، فانه تفضل من الله تعالى ومنّ وإن لم يثبت به الاستحباب، لكن المطلوب على أية حال هو الأثر، والثمرة بمجرد بلوغ الثواب على عمل بدون حاجة إلى تحقيق السند ثابتة حاصلة وإن لم يثبت خصوص الاستحباب كحكم من الأحكام الخمسة، أفليس ذلك من رحمة الله بعباده ولطفه؟.

حجية الظن العام في التاريخ

رابعاً: التاريخ، فإن بناء العقلاء في القضايا التاريخية، في غير ما وقع الخلاف فيها أو قامت قرائن على الكذب فيها أو شبه ذلك، على الاتكال على نقل المؤرخ فيها وإن لم تكن متصلة الإسناد، وعلى ذلك الفطرة أيضاً ولذا نجد كافة الأمم يعتمدون في تاريخهم على ما يذكره مؤرخوهم دون مطالبة بسند متصل أو قرائن قطعية، بل لولا ذلك لانقطعت صلة الأمم بتاريخها وانفرطت عرى تلاحم المجتمع بعضه ببعض. وذلك من عظيم رحمة الله تعالى أن فتح باب التصديق والاعتقاد الساذج بالتاريخ دون توقيف ذلك على توفر ضوابط علم الرجال الصعبة.

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، دار الثقافة للنشر - قم، ١٤١٤ هـ، ص ٥٨.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٤ هـ، ج ٤ ص ٢٨٨.

(٣) ثقة الإسلام الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، عدد الأجزاء ٨، ج ٢ ص ٨٧.

(٤) المصدر.

(٥) محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليه السلام - قم، ١٤٠٩ هـ، ج ١ ص ٨٢.

التفريق بين مقام الواعظ ومقام المحقق

نعم، لا بد من التفريق بين مقامين: مقام الواعظ الذي ينقل قصةً أو حدثاً تاريخياً، ومقام المؤرخ أو الباحث الذي يعد رسالة ماجستير أو دكتوراه مثلاً؛ ولذا نجد الأمم أيضاً يفرقون بين المقامين ففي المقام الثاني يشترطون التحقيق والبحث والفحص والمقارنة والجرح والتعديل بعكس الأول، ولو عكس كلٌّ منها لاستحق اللوم والعتاب:

ألا ترى الباحث والمؤرخ والمنقب في الأركيولوجيا^(١) وشبهها لو اكتفى بالسرود المجرد لما كانت لاطروحته الجامعية أو دراسته العلمية أية قيمة؟ وألا ترى - في الاتجاه المقابل - الواعظ أو المرابي والموجه الجماهيري العام لو انشغل بتحقيقات علمية دقيقة عن المعلومة التاريخية لكان خارجاً عن المحيط الذي كان يجب عليه أن يسبح فيه، وعُد ذلك منه خلافاً للحكمة، كما سوف ينفص عنه الجمهور؟

حجية الظن العام في العلوم العادية

خامساً: بل وكذلك الحال في العلوم النظرية العادية، فمثلاً كم هو عدد سكان الصين؟ والجواب الذي يُنتظر من الخبير هو الجواب الدقي حسب آخر الإحصاءات المعتمدة، أما الجواب الذي لعامة الناس أن يجيبوا به أبناءهم أو أصدقائهم فهو الجواب التقريبي. فتأمل وذلك كله في غير القضايا الخطيرة؛ أما الخطير، كالدماء والفروج والأموال فلا يكتفي العقلاء بمجرد نقلٍ عن مصدرٍ بدون تثبتٍ من سلسلة الإسناد ولذلك لم يكن من الصحيح الاعتماد على نقل مؤرخ في استنباط حكم شرعي أبداً حتى في غير الدماء والأعراض والأموال لأنها من شأنها أن يتثبت فيها إذ بنيت على التحقيق والفحص والبحث والجرح والتعديل.

حجية بعض مراتب الظن على الانسداد

هـ - أنها - مقدمات الانسداد - مطلقة أو مهملة من حيث المراتب، والمراد من المراتب مراتب الظن، فان نتيجة مقدمات الانسداد قد يقال بانها مطلقة من حيث مراتب الظن (متدرجةً من الـ ٦٠% فرضاً إلى الـ ٨٠% مثلاً بناء على أن دون الستين شك عرفاً وأن ما فوق الثمانين ظن معتبر عقلائياً، وهذا لمجرد التقريب وإلا فالمرجع في صدق الشك والظن والاطمئنان وغيرها هو العرف ويختلف صدقها، من حيث النسبة الكمية، باختلاف المتعلق والحالات والظروف مما يحتاج إلى عقد بحث خاص.

والمستظهر أن نتيجة الانسداد مهملة من حيث المراتب بمعنى أن نتيجتها حجية الظنون الأقوى فإن وفّت ولم يكن في الإلزام بالاحتياط بما عداها عسر وجرح فيها، وإلا تدرّجنا في النزول حتى يتحقق الأمران (الوفاء بالمعظم من الأحكام أو بما لا علم بعده بثبوتها وعدم العسر والجرح في الإلزام بالاحتياط في الباقي).

ولا يخفى: أن تقريرنا لبعض متعلقات الظن أو غيرها كان بحيث ينطبق على الانفتاح أيضاً.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين

(١) الأركيولوجيا (Archaeology) [أو علم الآثار] هي فرع علم الإنسان الذي يركز على المجتمعات والثقافات البشرية الماضية وليس الحاضرة. وتدرس (تحديداً) المصنوعات الحرفية ك"الأدوات، الأبنية، الأوعية...". أو ما بقي منها، والتي استمرت بالتواجد للوقت الحاضر، وأيضاً الأحافير الإنسانية. وتنظر إلى البيئات الماضية، لكي يُفهم مدى تأثير القوى الطبيعية ك"المناخ والطعام المتواجد" [على سبيل المثال] على تشكيل الثقافة الإنسانية. يدرس بعض الأركيولوجيون الثقافات التي تواجدها قبل تطور الكتابة، أي في فترة "ما قبل التاريخ" (prehistory). إن الدراسة الأركيولوجية لحقبات تطور البشرية منذ التواجد البشري وحتى فترة تصل إلى عشرة آلاف عام قبل الميلاد [أي حتى بدء الثورة الزراعية] تدعى "بالبيوأنثروبولوجيا" (Paleoanthropology) [علم الإنسان القديم]. أما دراسات حقبات زمنية أحدث، من خلال البقايا المادية والوثائق المكتوبة، فتدعى الأركيولوجيا التاريخية.